## الشعراء الصعـــــاليك

الصعلوك في اللغة الفقير الذي لايملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة ولم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخاصة ، فقد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق ، ويمكن أن نميز فيهم ثلاث مجموعات :

مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائرهم مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحدادية وأبي الطمحان القبني ، ومجموعة من أبناء الحبشيات السود ،حمن نبذهم آباؤهم ولم يلحقوهم بهم لعار ولادتهم مثل السليل بن السلكة وتأبط شرا والشنفرى ، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم فسموا وأضرابهم باسم أغربة العرب ، ومجموعة ثالثة لم تكن من الخلعاء ولا أبناء الإماء الحبشيات ، غير أنها احترفت الصعلكة احترافا ، وهم من الفقراء المعدمين المتمردين على الواقع الاجتماعي والاقتصادي الجاهلي يقودهم الشاعر عروة بن الورد العبسي ، ومثلما تتكون هذة المجموعة من أفراد فإنها تتكون أيضا من قبائل مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي .

ويمتاز الصعاليك بقوة النفس والشجاعة والصبر عند البأس وشدة المراس والمضاء وسرعة العدو ،حتى ليسمون بالعدائيين ، وحتى لتضرب الأمثال بهم في شدة العدو، فيقال:"أعدى من السليل" و "أعدى من الشنفرى" كما يحسنون ركوب الخيل والإغارة عليها ـ وكانوا ينتشرون في جبال السراة التي تحيط بمكة ،اذ أنهم يرصدون طرق القوافل التجارية وقوافل الحجاج القاصدة اليها ـ كما كانوا ينتشرون بالقرب من الطائف والمدينة وأطراف اليمن الشمالية .

بعض موضوعات شعرهم :

١. **الفقـــــــــر** : حين نرجع الى أخبار الصعاليك وأشعارهم نجدها حافلة بالحديث عن الفقر ، فكل الصعاليك فقراء ، لا نستثني منهم أحدا حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك الذي كانوا يلجؤون اليه كلما قست عليهم الحياة ، ليجدوا عنده مأوى لهم حتى يستغنوا ، فالرواة يذكرون أنه كان صعلوكا فقيرا مثلهم ، وتكثر في شعرة أحاديث فقره ، وما يعانيه من حرمان ، وما يتكبده في سبيل الغنى من جهد ومشقة ، وما يشعر به من ثقل التبعة التي يتحملها إزاء أهله ، وإزاء أصحابه الصعاليك أيضا ، يقول عروة :

ذريني للغنى أسعـــى فإني رأيت الــناس شعرهم الفقير

ويقول أيضا :

فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذا يسار أو تموت فتعذرا

ويقول كذلك :

ومن يل مثلي ذا عيال ومقترا من المال يطرح نفسه كلّ مطرح

وهذا الفقر الــذي استبد بحياة الصعاليك حمل لهم في ركابه الجوع ، نتيجة طبيعية له ، ولعل الجوع أقسى ما يحمله الفقر الى جسد الفقير ، فقد تحدثوا عن أثره في أجسامهم ، من ذلك حديث السليل بن السلكة عن فعل الجوع به في أشهر الصيف المحرقة وما كان يصيبه من إغماء حتى لقد كان يشرف على الموت والهلاك :

ومــا نلتها حتى تصعلكت حقبة وكدت لأسباب المنية أعرف

وحتى رأيت الجوع بالصيف ضرني أذا قمت تغشاني ظلال فأسدف

والمتأمل في أخبار الصعاليك وأشعارهم يلفت نظره شعور حاد بالفقر، وإحساس مرير بوقعه على نفوسهم ، وشكوى صارخة من هوان منزلهم الاجتماعية وعدم تقدير المجتمع لهم وعجزهم عن الأخذ بنصيبهم من الحياة كما يأخذ سائر أفراد مجتمعهم ، أو الوقوف معهم على قدم المساواة في معترك الحياة ، لا لأنهم هم أنفسهم عاجزون ، وإنما لان مجتمعهم ظلمهم ، وحرمهم من تلك العدالة الاجتماعية التي

يطمح اليها كل فرد في مجتمعه ، وجردهم من كل الوسائل المشروعة التي يواجهون بها الحياة كما يواجهها غيرهم ممن توافرت لهم هذه الوسائل .

وينظر هؤلاء الفقراء الجياع ، المحتقرون من مجتمعهم ، المنبوذون من إخوانهم في الإنسانية الى الحياة ليشقوا لهم طريقا في زحمتها وقد جردوا من كل وسائلها المشروعة فلا يجدون أمامهم إلا أمرين : أما إن يقبلوا هذه الحياة الذليلة المهينة التي يحيونها على هامش المجتمع في أطرافة البعيدة ، خلف أدبار البيوت ، يخدمون الأغنياء أو ينتظرون فضل ثرائهم أو يستجدونهم في ذلة واستكانة ، وإما أن يشقوا طريقهم بالقوة نحو حياة كريمة أبية ، يفرضون فيها أنفسهم على مجتمعهم ، وينتزعون لقمة العيش من أيدي من حرمهم منها ، دون أن يبالوا في سبيل غايتهم أكانت وسائلهم مشروعة أم غير مشروعة ، فالحق للقوة ، والغاية تبرر الوسيلة .

وينظر هؤلاء الصعاليك الى المجتمع ، فاذا هو مجتمع ظالم ، واذا توزيع الثروة فيه توزيع جائر مضطرب . إنه مجتمع لا يؤمن الا بالمال ، ولكنه مع ذلك لا يحسن توزيع المال بين أفراده ، فليس من العدل أن يكون لأحد أفراده عدد ضخم من الإبل في حين لا يملك الآخر غير حبل يجره لا بعير فيه ، وما هذه الإبل التي يملكها هذا الأحد سوى إبل الله خلقها للناس جميعا ، فهي ليست حقا له وحده دون غيرة من خلق الله في هذه الأرض .

ووقف هؤلاء الصعاليك أمام هذه المشكلة الخطيرة ، ولم يجدوا أمامهم ـ بسبب البيئة والمجتمع والمزاج الشخصي ، من وسيلة يرضونها لأنفسهم إلا الاعتماد على القوة يغتصبون عن طريقها ما آمنوا به بأنه حقهم المسلوب ، فمضوا خلف أولئك الأغنياء المترفين ، وبخاصة البخلاء منهم ، وتربصّوا بالقوافل التجارية التي تسيل بها شعاب الجزيرة العربية ، ينهبنون ويسلبون ولا يتورعون عن قتل من يعترض طريقهم ، لأن المسألة أخذت في أذهانهم وضعا ثنائيا لا ثالثا له : أما حياة كريمة ، وأما ميتة كريمة ، أما أنصاف الحلول فشيء لا يؤمنون به .

لقد آمن هؤلاء الصعاليك بأن الحق للقوة ، وأن الضعيف ضائع حقه في هذه الحياة ، ورأوا أمامهم أولئك الصعاليك الفقراء المستضعفين وما يلاقونه من ذل وضيم وهوان ، فرثوا لهم وآلوا على أنفسهم أن يثأروا لهم ممن استضعفوهم ، وأن يفرضوا أنفسهم فرضا على ذلك المجتمع الذي أذل أخوانهم الضعفاء ، ومن النماذج الشعرية التي توضع فلسفة الصعاليك في الحياة وفلسفتهم في مشكلة الفقر ، وموقفهم من واقعهم الاجتماعي والاقتصادي ، قول عروة بن الورد:

ذريني للغنى أسعى فإنـــي ... رأيت الناس شرهم الفقير
وأهونهم وأحقـرهم لديـــه ... وإن أمسى له كرم وخيـر
ويقصى في الندي وتزدريه ... حليلته وينهره الصغـــير
وتلقى ذا الغنى ولـه جـلال ... يكاد فؤاد لاقيه يطـــــير
قليل ذنبـــه والذنب جـــــم ... ولكـن الغنى رب غفـور

**٢.أحاديث التشرد :** تحفل أخبار الصعاليك وأشعارهم بأحاديث التشرد في أنحاء الصحراء والموحشة ووديانها الرهيبة ، حيث يحيا الوحش بعيدا عن البشر، وحيث يكون الموت في كل ركن من أركانها ... ولعل أقوى تصوير لهذا التشرد قول "الشنفرى" في لاميته المعروفة "لامية العرب" إذ يقـــــــول :

ولي دونكم أهلـون سيد عملّـس ... وأرقط زهلول وعرفاء جيـــأل
هم الأهل لا مستودع السر ذائـع ... لديهم ولا الجاني بما جر يخـذل

**٣.وصف الأسلحة :** من الطبيعي أن يتحدث الشعراء الصعاليك عن أسلحتهم فهي القوة الثالثة التي يعتمدون عليها في مغامراتهم إلى جانب قوة قلوبهم وقوة أرجلهم ..تلك القوة الثلاث التي تقوم عليها حياة

الصعلوك ..والأسلحة التي يصفها الصعاليك منها أسلحة الهجوم "السيف والرمح والقوس والسهام "وأسلحة الدفاع "الدرع والترس"...ويلح الشعراء الصعاليك في الحديث عن هذه الأسلحة الحاحا شديدا ولا غرابة في ذلك ،إذ أنها تكاد تكون كل ما يملكون في حياتهم ألفقيرة ، يقول عمرو بن براقة في سيفه :

وكيف ينام الليل من جـــــل مــاله   حسام كلون الملح أبيض صـارم
عضوض اذا عض الكريهة لم يدع   له طعم طوع اليمين فـــــــلازم

**الخصائص الفنية لشعر الصعاليك :**

يتميز شعر الصعاليك بمجموعة من الميزات الفنية أهمها :

١.**شعر مقطوعات** : يلاحظ على شعر الصعاليك في معظمه أنه شعر مقطوعات .. ولعل مرد ذلك يعود الى طبيعة حياة الصعاليك نفسها ، تلك الحياة القلقة المشغولة بالكفاح في سبيل العيش التي لا تكاد تفرغ للفن من حيث هو فن يفرغ صاحبه لتطويره وتجويده ، وإعادة النظر فيه ، كما يفعل الشعراء القبليون الذين فرغوا للفن فراغاً هيأتها لها قبائلها لا من أجل الفن ولكن من أجل أنفسها ، ومن ألأمثلة على ذلك قول عروة بن الورد :

إني امرؤ عـافي إناني شِـركـــة   وأنتَ امرؤ عافي إنائك واحِـــــدُ
أتهزأ مني أنْ سمنتَ وقد ترى   بجسميَ مس الحق والحقُ جاهـد
أقسمُ جسمـي في جسومٍ كثيــرةٍ   وأحسو قـراح الماءِ والمـــاءُ باردُ

٢.**الوحـــــدة المـــــــوضوعية :** إن الناظر في شعر الصعاليك تلفت نظره تلك الوحدة الموضوعية في مقطوعاته وأكثر قصائده ، بحيث يستطيع أن يضع لكل وحدة عنواناً خاصاً بها ، دالاً على موضوعها ... فقد تكون وصفاً لمغامرة أو حديثاً عن الفرار وسرعة العدو، أو تقريراً لفكرة اجتماعية أو اقتصادية أو غير ذلك من موضوعات شعر الصعاليك ... بل ان مطولاتهم برغم تعدد موضوعاتها نستطيع أن نردها الى أصل موضوعي واحد ، فليس التعدد هنا تعدداً في الموضوع ، وإنما هو تفرع في أغراض الموضوع الواحد..من مثل قول عروة بن الورد أيضاً :

دعيني أطوّفْ فـي البلاد لعلنــي   أ ُفيدُ غِنىً فيه لـذي الحق مَحمـــلُ
أليسَ عظيماً أنْ تلم مِلمــــــــة   وليس علينا في الحقـوق مُعَـــولُ
فإنْ نحن لم نملك دفاعاً لحـادثٍ   تِلم به الأيام فالمـوت ُ أجمـــــــلُ

٣.**التخلص من المقدمات الطللية** : لم تحظَ المقدمات الطللية باهتمام الشعراء الصعاليك ، عدا بعض القصائد التقليدية ، إذ اتخذوا لهم مذهباً أخر استعاضوا به عن هذه المقدمات ، وهو مذهب جعلوا محوره "المرأة" أيضاً ، ولكنها ليست المرأة المحبوبة التي عرفناها عند الشعراء القبليين ، تلك التي يتدله الشاعر في حبها ويقف على أطلال ديارها ، ويدعو أصحابه الى الوقوف معه ، ولكنها المرأة المحبة الحريصة على فارسها ، التي تدعوه دائماً الى المحافظة على حياته ، إن لم يكن من أجل نفسه فمن أجلها هي . كما تلومه وتعذله على المخاطرة بنفسه ، وهي ما أطلقنا عليها "المرأة العاذلة". وليس من شك في أنها براعة ممتازة أن يضع الشعراء الصعاليك في مستهل قصائدهم صورة للمرأة العاذلة الضعيفة التي يظهر صاحبها الى جوارها بطلاً قوياً مستهيناً بحياته من أجل فكرته ، يرفض نصيحتها في رفق وأدب ، ويقابل جزعها بابتسامة الواثق بنفسه ، المعتد بشخصيته ، ويحاول أن يقنعها في قوة وأيمان بسداد رأية ، وسلامة مذهبه في الحياة ، كما نلمس ذلك في قول عروة بن الورد :

ذريني أطـوف في البلاد لعلنـــي   أخليكِ أو أغنيكِ عن سوءِ محضرِ
فان فاز سهمٌ للمنيةِ لم أكــــــنْ   جزوعاً وهل عن ذاك من متأخرِ
وإنْ فاز سهمي كفكمْ عن مقاعدٍ   لكم خلف أدبــار البيوت ومنظـــرِ

٠٤ **عدم الحرص على التصريع :** وهذه الظاهرة توشك أن تكون مطّردة في كل شعر الصعاليك سواء ما كان منه مقطوعات أو قصائد ... ولعل مرد هذا الأمر يعود الى تلك الثورة التي كانت تجيش بها نفوس الصعاليك على أوضاع مجتمعهم والى تلك الحرية التي كانوا يعيشون في ظلها والتي كانت ترفض الخضوع لتقاليد مجتمعهم ... تلك الثورة وتلك الحرية ظهرت آثارهما عن طريق العقل الباطن في حياتهم الفنية ، فكان شعرهم ثائراً على ألأوضاع الفنية في الشعر الجاهلي القبلي ،حراً في أوضاعه الفنية .

٥. **التحلل من الشخصية القبلية :** من الطبيعي ألا تظهر الشخصية القبلية عند الشعراء الصعاليك ذلك أنهم فقدوا التوافق الاجتماعي بينهم وبين قبائلهم ، مما ترتب عليه فقد الإحساس بالعصبية القبلية في نفوسهم ، وما دامت الصلة بين الشعراء الصعاليك وبين قبائلهم قد انقطعت اجتماعياً فمن الطبيعي أن تنقطع فنياً . ونعني بانقطاعها فنياً تحلل الشاعر الصعلوك من ذلك "العقد الفني" الذي نراه بين الشاعر القبلي وقبيلته ، وإنما يصبح شعرة صورة صادقة كل الصدق من حياتة هو، يسجل فيه كل ما يدور فيها ، ويصبح ضمير الفرد "أنا" أداة التعبير فيه بدلاً من ضمير الجماعة "نحن" الذي هو أداة التعبير في الشعر القبلي ، وتصبح المادة الفنية لشعرة مشتقة من شخصيته هو لا من شخصية قبيلته .

٦.**السرعة الفنيـــــــة :** وإذ كانت حياة الشعراء الصعاليك قلقة مضطربة لا تكاد تعرف للاستقرار، أو للطمأنينة طعماً ، فهم دائماً مشغولون بكفاحهم من أجل العيش ، ذلك الكفاح الدامي المرير الذي فرغوا تاماً ، والذي وهبوا له حياتهم ، وجعلوه مذهباً لهم يعيشون له ويموتون في سبيله ، وإذ كان شعر الصعاليك صورة صادقة لحياتهم ، كانت النتيجة الفنية لهذا أنْ اتسم شعرهم بالسرعة الفنية .

ومن أقوى مظاهر هذه السرعة "خفوت الصنعة الفنية" في شعرهم ، بحيث لا يكاد الناظر فيه يلمح أثراً من آثار التجويد الفني المتمهل الواضح الأناة ، وإنما هو حديث سريع يتدفق من نفس الشاعر دون أن يحرص عليها الشعراء المحترفون . والواقع أن حياة الشاعر الصعلوك لم تكن بالتي تتيح له من الفراغ والاطمئنان ما يجعله يتمهل في عمله الفني أو يتأنى فيه .

٧.**كثرة الغريب في شعرهم** : إن الناظر في شعر الصعاليك ليشعر أحياناً أنه أمام مجموعة من الطلاسم اللفظية ، يضطر أمام كل لفظ منها الى الرجوع الى المعاجم المطولة ، لأن المعاجم المختصرة لا تسعفه ، ويكفي أن نقرأ هذه الأبيات لتأبط شرا :

| | |
|---|---|
| وحثحثتُ مشعوف النجاء كأنني | هجَفٌ رأى قصراً سمالاً وداجنا |
| من الحص هُزروفٌ كأن عفاءة | اذا استدرج الفيفا ومد المغابنا |
| أزَجُ زلوجٌ هذْرفيٌ زفازفٌ | هِزَف يبذ الناجيات الصوافنا |

لتتضح هذه الغرابة اللفظية التي انبعثت من أعماق ألصحراء حيث كان يعيش هؤلاء الصعاليك مشردين .

ولعل عروة بن الورد أقل الشعراء الصعاليك إغراباً من الناحية اللغوية ، ولعل سبب هذا أن عروة كان يقوم في حركة الصعلكة بدور الزعيم الشعبي ، أو صاحب المذهب الذي يدعو الجماهير الى اعتناق مذهبه ، فكان طبيعياً أن يتبسط في الحديث الى جماهيره باللغة التي يألفونها ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم يكن عروة بالصعلوك ، وإنما كان أنساناً بكل ما في الإنسانية من معان ، يحرص على الاتصال بمجتمعه الإنساني والعمل من أجله ، ومن هنا خلصت لغته من تلك الحوشية البدوية التي نلاحظها عند غيره من الشعراء الصعاليك ، وبخاصة تأبط شراً والشنفرى .